من التاريخ الإسلامي

# الفصل الأخير من المأساة

## على أبواب المدينة

للأستاذ علي الطنطاوي

زينب — كفى يا فاطمة . كفى يا حبيبتي، لقد بلغنا مشارف المدينة

فاطمة — وما ذا أصنع في هذه المدينة ؟ أألقى فيها أخي ؟ أأأتي الفتية الكرام من آل النبي ؟ لقد ذهبوا يا زينب ، لقد ذهبوا إلى الأبد ...

سمية أمسى نسلها عدد الحصى

وليس لآل المصطفى اليوم من نسل[1]

زينب — إنا لله وإنا إليه راجعون !

فاطمة — ما ذا أجد في المدينة ؟ يا مدينة الرسول ! هؤلاء بنات الرسول يتامى ثاكلات أسيرات ذليلات كأنهن سبايا الروم ... يا مدينة الرسول ...

زينب — فاطمة، أشفق على الصغار، لقد نفدت دموعهن ...

فاطمة — ولن يدخرن الدموع بعد حسين ؟ إبكين إبكين ... لقد قتل الحسين !

زينب — فاطمة ، أهكذا تدخلين المدينة يا فاطمة ! كفى يا أختاه كفى

فاطمة — لقد كانت مدينتي يا زينب يوم كان فيها أهلي ، فما لي اليوم فيها من أهل . إن مدينتي هناك ، في الغفرة التي غصت أحشاؤها بأجساد الهاشميين ، آه ... هل دخل على أهل بيت ما دخل علينا ؟ آه ، يا رب !

زينب — استعيني بالله

فاطمة — لقد رأيت ابن أخي ، وهو ابن خمس سنين ، يخرج من الخيمة فيتلفت مذعوراً لا يدري ما ذا يرى فلحقته لأدخله، فوجدت... آه، يا رب، وجدت ... الهم ... لقد قتلوا الطفل !

زينب — إصبري يا فاطمة إن الله مع الصابرين

فاطمة — لقد رموا أخاه فمات في حجر أبيه فتلقى الحسين دمه بيده ... أنظري يا زينب ! ألا ترين إلى الدم قد خضب حواشي الأفق ؟

زينب — هذا هو الشفق يا فاطمة !

فاطمة — وهذا السواد الذي غطى على الكون؟

زينب — هذا هو الليل ، مالك يا فاطمة ؟ هذا الليل ...

فاطمة — إننا سنعيش في فجر دائم لا يلمح في جوانبه فجر . سنعيش بعد الحسين في ليل الأحزان السرمدي

زينب — لقد عدت إلى البكاء ! فاطمة إلى متى تبكين ؟

فاطمة — إلى أن يرجع حسين ، حسين خير الفتيان ، وسيد شباب الجنة

زينب — لا حول ولا قوة إلا بالله

فاطمة — حسين يا أخي يا حبيبي ، يا قرة عين رسول الله

زينب — ...

فاطمة — لقد رباك النبي ، وغذتك فاطمة بنت محمد، ليقتلك سنان بن أنس النخعي ؟ لتكن ملعوناً يا سنان على كل لسان

زينب — تعال كلمها يا عليّ ، تعال كلم عمتك

(١) أنشده يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم بين يدي يزيد ( الطبري : ٦ — ٢٦٥ )

فاطمة — أين هو علىّ ؟

على — هأنذا يا عمتى !

فاطمة — أدن منى ياعلىّ ، أنت بقية آل محمد. أنت اليوم رجلنا وحامينا ، لم يبق إلا أنت ... آه كل أسرة فيها رجالها ، ورجال بيت النبي مصرّعون فى كربلاء ! لقد وسع المسلمون بعدلهم الذمىّ والكافر ، ولكن عدلهم ضاق عن آل النبى ، لقد قدموا الحياة السعيدة للنصرانى واليهودى ولكنهم لم يجدوا لابن بنت النبى إلا الموت الأليم

أفكان لهم ثأر عندك يا محمد ؟

على — كفى يا عمّة ، لست وحدك المصابة ، إن المجد والشرف والاسلام ، كل أولئك أصيب يوم أصيب الحسين . كفى يا عمّة لست وحدك الباكية . ستبكى معك عيون طاهرة لن يجف فيها الدمع إلى يوم القيامة . لقد مات الحسين ، لقد قتل أبى . . . ولكنه سيعيش خالداً بروحه فى جنان الخلد ، وخالدا باسمه فى القلوب . ألم يختر هو الموت اختياراً ؟ ألم يقدم عليه ؟ ألم يعرض عن نصيحة عمى محمد بن الحنفية ؟ ألم يستحلفه عالما الأمة بن عمر وبن عباس أن يقيم فى الحجاز ، وألايثق بما يقول الكوفيون ، وألايشق عصا المسلمين ، فأبى ألا المسير ؟ ألم يأته الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وانقلاب أهل الكوفة عليه ؟

فاطمة — بلى بلى ، ولكنه رأى الجور فاشياً ، والمنكر معروفاً ، وأموال الله نهباً مقسماً وحمى مستباحاً ، فنهض ينصر الحق ، ويحيى العدل ، ولم يقم حتى دعوه وألحوا عليه . . . ما كان يظن أن المسلمين يقتلون ابن بنت نبيّهم ، ويذبحون أطفاله ، ويسوقون نساءه كما تساق أسرى الروم . فكيف كان هذا أبا على ولم تطبق السماء على الأرض ؟ أيقتل بنو النبي وتسبى نساؤه ولا يغضب أحد ؟ ألم يبق على وجه الأرض مسلم ؟

هذا ابن بنت النبي ، وفتى بنى هاشم ، لو مات على فراشه لهزّ موته أهل الاسلام ، فكيف وقد قتل مظلوماً ، وقد قتل معه هؤلاء الفتيان البرءاء . وهتكت أستار أكرم بيت رفع على ظهر هذه الأرض ؟ آه . أيطلّ دمك يا حسين ؟

على — إطمئني ياعمة! إن دم الحسين لن يطل. لقد وقع الزلزال فأفاق الناس فزعين ، ولكنّ الهزة لم تدع لهم سبيلا إلى التفكير . إن العالم اليوم حائر مشدوه لأنه لم يكن يصدق أن هذه هى التحية ، كلا ، ولا هؤلاء الذين تألبوا على أبى يحاربونه . كانوا يظنون أنه سيستسلم لهم . كانوا يتحامون قتله ، ويناون عنه ، لا يريد أحد منهم أن يلقى الله بدمه وأن يبوء بهذه اللعنة ، فلما رأوه مقتولا ذعروا ، وتيقظوا كأنما أفاقوا من حلم هائل

فاطمة — ولكنهم أفاقوا بعد مافات الأوان . يا لهؤلاء الوحوش ! يا للذئاب ... لقد دعوه وألحوا عليه ، حتى إذا جاء نهضوا إليه بالسيوف ، وضنوا عليه حتى بالماء . لقد شهدته يقاتل عطشان قد جف حلقه من الظمأ ، فحسبتهم سيسقونه ، ولكنهم سددوا إلى فمه سهماً ملأ فمه بالدم . هذا هو الذى منوا به عليه !

على — إنهم سيندمون يا عمة . سيمضون أصابعهم حسرة . إنهم سيلطمون على وجوههم لوعة . إن هؤلاء الذين قتلوا الحسين وقتلوا أباه ، هم الذين سيبكون عليه وعلى أبيه . إن الكوفة التى أذاقتنا الغصص ستكون مثابة شيعتنا ، ومثوى أحبائنا ... سيفنى الأعداء ، ويبقى الأحباء ، سيأتي يوم يقال فيه ، أين من قتلوا حسيناً ، أين أنسالهم ؟ أين من يبغض آل بيت النبي ؟ قد خلا وجه الأرض منهم ، ليس فى الدنيا من بنى أمية أحد

الدليل — وما ذنب بنى أمية ؟

على — لقد نسيت أنك هنا ، ما كان لى أن أتكلم عن بنى أمية بمسمع منك

الدليل — ولم يا سيدى ؟ إنى من جنود أمية ولكنى محب لكم ولذلك صحبتكم. وهل يتم إسلام امرئ يبغض آل بيت نبيه ؟ إنى والله ما أوثر عليكم بنى أمية ، ولكنها كلمة الحق

على — وما هي كلمة الحق ؟

الدليل — هى أن أمير المؤمنين يزيد لم يرد قتل أبى عبد الله ولم يأمر به ، ولقد كتب إلى ابن زياد ألا يقاتل من لم يقاتله

على — لقد عرف ذلك الحسين ، فسأل القوم أن يدعوه حتى يضع يده فى يد يزيد ، أو يمضى إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل فيه المشركين ، أو يعود من حيث جاء

الدليل — أنصفهم والله ! ولو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له ، عارفاً بقدره ؛ إن لم يمنعه دينه من قتله ، منعته مروءته ، وهو ابن عمه ، أن يرمل نساءه ، ويهتك أستاره

على — صدقت والله ، ما رأينا من يزيد إلا خيراً . أحسن إلينا ولعن ابن سمية وترحم على الحسين ، وكان قصره من البكاء على أبى عبد الله كأنه فى مناحة [1] . ولكن المجرم شمر بن ذى الجوشن

فاطمة — هذا الذى أوقد النار وضرّاها . لتنزل عليه اللعنة الحمراء. ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

على — وعبيد الله بن زياد

فاطمة — هذا الذى أمر بها ، هذا الذى ضرب بقضيبه ثغر قبله رسول الله . لتنزل عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة

على — لقد باءا بلعنة العصور وكانا سبة التاريخ. لقد فقدوا الدين والمروءة، وخسروا الشرف. لم يستسر حميتهما، ولم يهج إنسانيتهما، هؤلاء الأبطال الذين وقفوا يدافعون عن الحق ، ويذودون عن أسرة النبى، يقاتلون وهم عطاش والموت عن أيمانهم والموت عن شمائلهم ، والموت من أمامهم ، وهم ماضون فى سبيلهم لا يريدون مالاً ولا يبغون جاهاً ولا يحرصون على عرض من أعراض الدنيا ، ولكنهم يريدون الله حتى إذا أحسوا باليأس طفقوا يسارعون إلى الموت واحداً بعد واحد ، وكلما ذهب منهم بطل ودع الحسين وسلم عليه وأسلمه إلى من خلفه ليدافع عنه، حتى فارقوه جميعاً ليلقوه فى الجنة. هؤلاء هم الأبطال الأشراف الذين ستبقى أسماؤهم درّة فى تاج التاريخ تلمع أبداً فتضىء للسارين طريقهم إلى النبل والشرف والمجد: حبيب بن مظاهر، وزهير بن القين، والحر بن يزيد الذى كفر عن خطيئته ، وتاب من ذنبه ، رحمة الله على الجميع

زينب — أنظرى يا فاطمة لقد وصلنا إلى المدينة

فاطمة — خرجنا منها منذ شهرين فسحنا فى الأرض ورأينا العراق والشام ولكنا عدنا كالسبايا . لقد خسرنا كل شىء، آه. أين أنت يا أخى تستقبلنا، أين فتيان بنى هاشم يحفون بنا، أين رجالك يا أسرة النبى..

زينب — يا فاطمة ، إنهم ذهبوا ولكن الله باقٍ

فاطمة — هذه داركم يا آل النبى ، فتجرعوا فيها الآلام . هذه الدار فاذكروا ساكنيها الذين احتواهم جوف الأرض من كربلاء ، هنا كانوا يقيمون ، وهنا كانوا ...

على — قد بلغنا المسجد ، فانزلى فسلمى على الرسول . إنزلى يا عمة

فاطمة — السلام عليك يا رسول الله .. يا جدى .. لقد قتلوا ابنك الحبيب ! على الطنطاوى

(١) تاريخ الطبرى . والكتاب الذى تنشر منه هذا الفصل مأخوذ كله من الطبرى